التاريخ فى سير أعلامه :

ملـــتن ...

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ١٢ —

رحلة الى ايطاليا :

قضى ملتن نحو ستة أعوام فى هورتون بين كتبه وأوراقه ، وهى فى الحق عزلة طويلة ما كان ليطيقها لولا عزم مصمم ورغبة قوية فى الاستزادة من المعرفة والتأهب لعظيمة فى دنيا الشعر .

بيد أن القلق أخذ يساوره والسأم يهجس على قلبه فى نهاية العام الخامس من مقامه فى القرية أى سنة ١٦٣٧ قبيل نظمه مرثيته الرائعة ليسيداس ، تتبين ذلك مما كتبه إلى صاحبه ديوداتى فى سبتمبر من تلك السنة ، وكان ديوداتى قد صار يومئذ طبيبا تشغله مهنته فعتب عليه ملتن عتبا عنيفا أن لم يف بوعده فى زيارته وكانت لهجة الكتاب غاضبة شاكية تنم عن حال من الضجر والسأم من طول مصاحبة الكتب والإبتعاد عن الدنيا إلى هذا المضطرب الضيق المحدود فى القرية .

والحق إن هذه العزلة وإن أجدت على الشاعر كثيرا من الثقافة والاطلاع لم تخل من بعض الآثار السيئة ، فقد زادت من ذهابه بنفسه واعتداده برأيه ووثوقه من ارتفاع مستواه عن غيره ، وإلى ذلك يعزى إلى حد ما صرامته فى الجدل فيما كتب بعد وتعاليه على مخالفيه فى الرأى وعنفه فى الخصومة ، وغياب ما عرفه خلانه فى مجالسته من عذوبة روحه ورقة حاشيته وطلاوة حديثه .

وكانت قد ماتت أمه فى أبريل من هذه السنة ، وبموتها ازداد قلقه وازداد ميله إلى الرحيل عن هورتون ، وأصبح يحس أن مقامه فيها قد أشرف على النهاية ، فقد كان يجد فى ابتسامة أمه له وحدبها عليه وثقتها فى مستقبله وفرحها بطموحه عزاء له وبهجة لروحه فى هذه العزلة القاسية ، أما أبوه فقد جاوز السبعين وهجر ألحانه وقراءاته ، ورغبت نفسه عن الحديث فى الأدب والفن إلا قليلا ، ولهذا لم يعد ابنه يجد عنده ما كان يجده من قبل من بشاشة وإقبال إذ كان يفضى إليه بآماله ويحدثه عما يقع عليه فى مطالعاته من رأى سديد أو تعبير بليغ أو نادرة حلوة .

ورد عليه ديوداتى يتمنى له راحة البال وهدوء الحال ، ويسأله عما هو فيه . وكتب إليه ملتن كتابا لم يك فيه ما كان فى سابقه من الضجر ، وما ذلك إلا لأنه قد عقد العزم على أن يرحل . وكان يفكر أول الأمر فى الإقامة فى أحد فنادق لندن ، وفى هذا الكتاب أجاب ملتن إذ يرد على تساؤل صديقه بتلك العبارة التى أسلفنا الإشارة إليها ألا وهى تهيؤه لعمل يسلكه فى الخالدين .

وصح عزمه فى ربيع سنة ١٦٣٨ على الرحيل إلى إيطاليا لتكون رحلته فيها متعة لنفسه وثقافة لعقله ، فما إن تزال الثقافة هى حافزة إلى كل ما يعمل من عمل ، كأنما يضن بوقته أن يكون فيه قسط للراحة أو للمتعة الخالصة .

ولم يبخل الموثق الشيخ على ابنه بالمال اللازم له ولخادم يتبعه فأمده بثلثمائة وخمسين من الجنيهات وكانت تساوى يومئذ نحو ألف مما نتداوله اليوم ، وحمد ملتن لأبيه سخاءه ، وكان يتوجس خيفة منه حين هم بطلب ذلك المال ، وكان حريا أن يخاف ، فهو قد بلغ الثلاثين من عمره ولما يزل فى رأى أبيه عاطلا لم ينهض بعمل مما كان يحبه له ، وكأنما لم يكفه ذلك فجاء يطلب من أبيه مالا ليستمتع بالرحيل إلى إيطاليا !

والحق إنها يد للموثق الشيخ تضاف إلى سالف أياديه على ابنه ، ولم ينس الابن أنه تركه لما كان فيه من الشعر ، إذ آنس منه وهو بعد غلام أنه يحب أن يجعل من نفسه هوميروس آخر

وكان أبوه يحب أن يكون منه كلفن ثان ، ولم ينس أنه قبل ولو على كره انصرافه عن الوظيفة مدنية كانت أو دينية ، وأنه وافق على مقامه فى هورتون ليتفرغ للدرس والاطلاع وهو خريج الجامعة ؛ لم ينس الشاعر الشاب شيئا من هذا ولذلك فهو منتبط بسماحة أبيه ونور بصيرته ، ومرد ذلك فيما يرى الشاعر إلى ما تذوقه أبوه من نعمة الثقافة ، وما فتح عليه عينيه من نور المعرفة .

وكانت إيطاليا يومئذ منتجع خواطر الرجال والشباب من كل أمة على اختلاف ثقافاتهم وميولهم ، فكانت تجتذبهم إليها اجتذابا ، وكان لايحس المرء بكامل ثقافته إلا إذا زار معالمها أو معالم النهضة فى أنحائها ، وكان بها لكل عقل متعة ، يجد فيها ضالته رجل الفن ومحب البحث فى الآثار القديمة والعاكف على دراسة التاريخ والمولع بالمهار ، والمفتن بمشاهد الطبيعة والمشتغل بالفلسفة والعلم ، ولا عجب فى إيطاليا ازدهرت الحضارة الرومانية ، وفيها أشرقت شمس النهضة الأوروبية ومنها انبعثت أشعتها ، وهى مهد أوفيد وڤرجيل ، وموطن دانتى وبترارك وتاسو ورفائيل وميكائيل أنجلو وجاليليو ، وكانت فى النصف الأول من القرن السابع عشر حين رحل إليها ملتن كسوق انفضت إلا قليلا ، فلا يزال بها من سحر النهضة وجمال مواكبها بقية .

وكان أمرا طبيعيا أن ينجذب ملتن إلى إيطاليا وهو ابن النهضة بدراسته وروحه وفنه ، وما يزال يتجه بخياله وعقله إلى الربيع الأليزابيثى الراحل وكان موكبا من مواكب النهضة وإن له فى مشاهد إيطاليا وفى لقاء شعرائها ورجال الفن والذوق فيها وإن كانوا ظلالا لمن مضى من الأفذاذ ، لمتعة يطرب لها قلبه ، وتأنس بها روحه .

وكان لملتن أكثر من عدة إلى إيطاليا ، فإلى جانب ما أمده به أبوه من مال ، كان له باللغة الإيطالية علم كاف ، وبتاريخ إيطاليا معرفة وثيقة ، كما أنه حصل على كتب توصية به من بعض ذوى الحيثية ، وكان من بين تلك الكتب كتاب من سير هنرى ونون وقد قضى سير هنرى سنين من عمره فى إيطاليا ، وله فيها أصدقاء من ذوى المكانة

ونصح سير هنرى لملتن فيما نصح له به أن يتجنب المناقشات الدينية ، وأن يكون حريصاً فى هذا ما وسعه الحرص ؛ وكان سير هنرى خبيراً بما عسى أن يجلب على المرء المتاعب فى إيطاليا ، كما أنه كان يلمس من تحمس ملتن لرأيه ومن شدة كراهته لبابوية روما وقساوستها ما جعله يكرر له النصح فى إلحاح وشدة

وصل ملتن إلى باريس فى أبريل أو مايو سنة ١٦٣٨ ، وهنالك لقيه السفير الإنجليزى بالترحاب والحفاوة وقدمه إلى جروشيس وكان جروشيس يعيش منذ بضع سنين فى كنف ملك فرنسا لويس الثالث عشر ، وكان رجلا مشهور المقام فى الأدب والفلسفة والسياسة والبحث الدينى ، وكان قد حكم عليه فى بلاده بالسجن مدى الحياة بسبب آرائه الدينية التى خالف بها مذهب كلفن فى القضاء المحتوم ، وفر بمساعى زوجته إلى فرنسا ، حيث طاب له المقام ، وأظهر جروشيس الحفاوة بملتن وأبدله المودة وأثنى عليه ، وذكر له ما سمعه عن نباهة شأنه فى الشعر

وفى يوليو بلغ ملتن فلورنسه عن طريق نيس وجنوة ، وأقام الشاعر فى فلورنسة شهرين ، وقد أحب ملتن فلورنسة وأهلها حباً قوياً ، وكانت تمتاز يومئذ بجماعاتها الأدبية ، وكان بها من تلك الجماعات ست شهيرة ، وكانوا يسمونها الأكاديميات ، وشتان بينها وبين الأكاديميات الحديثة ذات القوانين المحددة والأصول المرعية فى البحث والدرس ، وإنما كانت هذه منتديات يلتقى فيها ذوو الثقافة فيتناقشون فيما يعرض لهم من المسائل فى جلسات ترفع فيها من بينهم الكلفة وتزداد الألفة ؛ وقد تنقل ملتن بين هذه الجماعات وكان يقابل فيها جميعاً بالحفاوة والمودة ، وأصغى ملتن وتكلم فى تلك المنتديات ، وكان هو ومضيفوه ينتقلون من حديث إلى حديث حيثما تتشعب طرق الكلام ، فتناولوا الأدب والعلم والفلسفة والرقابة على المطبوعات والسياسة والدين ؛ وتكلم ملتن عن عقيدته الدينية كما تعرض لعقيدتهم ، وأصغوا إليه فى دماثة وهدوء ، ووافقوه على كثير مما يقول ، بل إنهم ذهبوا إلى أكثر من ذلك فشكوا إليه وقد وثقوا منه ما يعانون من استبداد الكنيسة وطغيانها ، الأمر الذى يمقتونه أشد المقت ؛ وقد جاء فيما كتبه ملتن عن تلك الزيارة سنة ١٦٤٤ قوله : « جلست بين المثقفين من رجالهم ، وقد عدونى سعيداً أن ولدت فى انجلترة بلد الحرية الفلسفية كما تصورها يومئذ ، فى حين أنهم لم يترك لهم شىء إلا أن يئن المثقفون منهم مما يلاقونه من عنت وشدة ، وإلى ذلك يعزى ما أحاط بأولى الألمعية من الإيطاليين من ظلمة ، وإليه يعزى أنه لم يكتب طوال هذه السنين الكثيرة فى إيطاليا إلا اللغو والادعاء ! »

وكان مما اعتاده أعضاء هذه الأندية أن يلقى كل واحد منهم ما يبرهن به على ذكائه وسعة اطلاعه ، واستمع ملتن إلى كثير مما

ألقى أمامه بالإيطالية ، وجاء دوره فتلا فى إحدى هذه الجماعات عن ظهر الغيب بعض قصائده اللاتينية التى نظمها فى أول شبابه ، وبعض قصائد أخرى نادرة وقع عليها أثناء مطالعاته ، كما أنه ألقى عليهم بعض ما نظم بالإيطالية ، وقد طربوا كثيراً لهذه القصائد الأخيرة وبالغوا فى امتداحها ، وعبروا عن شعورهم نحو صاحبها بمدائح لاتينية ذكر ملتن أنها « مما يضن به الإيطاليون على من يقطنون فى هذا الجانب من الألب » .

وبلغ من فرط سروره بهذه المدائح أنه اعتزم أن تكون معظم أشعاره فى المستقبل باللاتينية ليذيع صيته فى القارة ، ولكنه ما لبث أن ترك هذه الفكرة بعد أن عاد إلى وطنه ؛ على أنه لم ينس تلك المدائح التى اختصه بها أهل فلورنسة فنشرها فى مقدمة ما نشر من أشعاره اللاتينية سنة ١٦٤٥ ، ولعله أراد بنشرها أن يطلع الحاقدين عليه من بنى وطنه على ما لقيه من ثناء وحفاوة بين الإيطاليين ، فقد أثنى الإيطاليون فيها على ذكائه وعلمه وحذقه اللغات ، وجماله وفصاحته وما يتصف به من فضائل ، وطول باعه فى الفلك والفلسفة والتاريخ وبالغ أحدهم وهو السنيور فرانسينى فراح يؤكد لملتن فى قصيدته أنه ما من سر مهما بلغ من عمقه تخبئه الطبيعة فى السماء أو فى الأرض إلا وهو على علم وثيق به ، وأنه قد بلغ حد الكمال الفضيلة وأن ألحانه الحلوة ترفعه إلى السماء .

واتخذ ملتن طريقه إلى روما فقضى فيها شهرين ؛ وهناك طاف بأبنيتها وآثارها القديمة وتعرف إلى كثير من ذوى النباهة والمكانة ، وقوبل بالحفاوة فيها كما قوبل فى فلورنسة ، وإن كانت حماسة أهل روما لم تصل إلى مدى حماسة أهل فلورنسة ، ولم يتبع ملتن فى روما ما نصح له به سيرهنرى ، فأخذ يتكلم فى حماسة وصراحة عن مذهبه البروتستنتى ورأيه فى الإصلاح الدينى ، ولعل ذلك هو السبب فى فتور حماسة أهل روما نحوه ، بل إن بعضهم انصرف عن الحفاوة به حينما نما إليهم ما يقول فى الدين ، وما كان ملتن بالرجل الذى يستطيع أن يخفى فى نفسه رأيا يؤمن بصوابه ، وما كان ليخاف عنتاً أو أذى فى سبيل عقيدته ، ومن أبرز خلاله منذ صغره الجهر بما يعتقد لأنه يرى أن الكتمان نوع من الذلة إذا كان الباعث عليه الخوف . وهكذا أخذ فى مدينة البابا نفسه يتكلم فى طلاقة وجرأة لا يهمه كيف يقع كلامه فى نفوس سامعيه ، ولا يخيفه أقل خوف ما عسى أن يكون من موقف السلطات حياله ؛ أشار إلى ذلك فيما كتب فقال « لم يكن من دأبى أن أثير المناقشات الدينية فيما أغشاه من الجماعات ، ولكنى كنت إذا سئلت عن عقيدتى لا أخفى شيئا مهما يكن ما أتعرض له من الم ... لم أخف عن أى سائل يسائلنى أى مذهب أعتنق مهما كان هذا السائل ؛ وكنت إذا هاجم أى شخص فى مدينة البابا العقيدة الأصلية لا أتردد فى الدفاع عنها بكل طلاقة »

وتعرف ملتن إلى رجل ألمانى الجنس هو لشتنيس ، وكان يقوم على شؤون مكتبة الفاتيكان ، وكانت له مكانة عظيمة فى نفوس الكثيرين من عظماء القساوسة ، وقد أراد أن يظهر للشاعر الإنجليزى عرفانه لجميل أهل انجلترا معه حين كان يطلب العلم فى اكسفورد وقد قدمه هذا الألمانى إلى الكاردينال العظيم فرنسكو باربرينى ، وكان الكاردينال يومئذ هو كل شىء فى روما ، وأقيم للشاعر حفل موسيقى فى قصر باربرينى وهناك استمع ملتن إلى المغنية الشهيرة ليونارة بارونى فأعجب بها إعجابا شديدا عبر عنه فى قصائد ثلاثة لاتينية قصيرة أهداها إلى المغنية العظيمة .

ولو كان رجل آخر مكان ملتن لأثرت فيه أمثال هذه الحفاوات وبخاصة ما جاء منها من قبل رجال الدين ، ولتخفف من صراحته وحدته فى الكلام عن عقيدته الدينية وركن إليهم شيئا قليلا ، ولكنه لم يدع لمثل هذه الأمور سبيلا إلى التأثير فى رأيه فلم يتحول عنه قيد شعرة الأمر الذى جعل البعض يصدون عنه بعد إقبال ، وجعل الجزويت ينكرون أقواله ومسلكه إنكاراً شديداً .

ولم تك تلك القصائد الثلاث كل ما أوحته إيطاليا إلى ملتن ، فبين قصائده اللاتينية خمس غيرها وجهها الشاعر إلى سيدة إيطالية لم يذكر اسمها سحرته « بسمو حركاتها وبحاجبها الأسود الذى يلقى فى النفوس الحب » .

وتوجه ملتن بعد ذلك إلى نابلى ، وهناك زار رجلا كان لزيارته إياه أجمل وقع فى نفسه وذلك هو مانسو العظيم ماركيز فيلا ، وكان مانسو فى الثامنة والسبعين من عمره ، ومرد عظمته إلى أنه كان راعى الأدب والفن مدة جيلين ، آوى فى أولها الشاعر تاسو وفى ثانيهما مارينى ؟ وها هو ذا يلقى شاعراً ثالثاً سوف يكون أعظم خطراً فى تاريخ الأدب العالى من ذينك الشاعرين ، وقد رحب به مانسو واستطاع على الرغم من شيخوخته أن يطوف به على الأماكن التى وصفها حين كتب حياة تاسو ، وأحب ملتن هذا الشيخ فامتدحه بقصيدة جميلة ذكر فيها أنه يود لو كان له راع مثل مانسو راعى

الشعراء ؟ ليمنى بدفنه إذ يموت ، ويقيم له تمثالا من الرمر يتوج الغار هامته . وقد أشار ملتن فى هذه القصيدة إلى مايعتزم فى دنيا الشعر كما أثنى على موطنه إنجلترة وعلى مكانتها فى الشعر والأدب ؛ وأهدى إليه مانسو كأسين منقوشتين وعبارة جاء فيها « لو أن دينك كان مثل عقلك وهيكلك ورشاقتك ووجهك ومزاجك ما كنت بريتانيا فقط بل كان مقامك بين الملائكة » .

واعتذر إليه مانسو لأنه لا يستطيع بسبب عقيدته الدينية أن يظهر له من الحفاوة به مايستحق مخافة الرقباء فى المدينة ، وعاد ملتن إلى روما فلبث فيها شهرين آخرين ثم ذهب مرة ثانية إلى فلورنسة ، وفى هذه المرة استطاع أن يزور العالم العظيم جاليليو وكان نزيل السجن فى المرة الأولى ؛ بسبب آرائه فى الفلك ومخالفته بها رأى الكنيسة ، وزاره ملتن فى بيته على مقربة فلورنسه بعد أن حصل على إذن من السلطات ، وكم تأثر الشاعر لرأى هذا العالم الشيخ قد كف بصره وأحيط بالرقابة الشديدة وبدا محطم الهيكل شديد الضعف ، على أنه كان لا يزال محتفظا بقواه العقلية ؛

ولو اطلع ملتن على الغيب ساعتئذ لرأى لنفسه صورة شبيهة بصورة جاليليو فى ضعفه وفقد بصره ومماناته الآلام من أجل عقيدته ...

وسافر ملتن بعد ذلك إلى البندقية ومنها أرسل إلى وطنه ما اشترى من كتب ومخطوطات وكان بينها صندوقان لكتب الموسيقى ، ومن البندقيه اتجه إلى جنيف ليعود منها إلى موطنه وكان يجب أن تطول رحلته أكثر من هذا ، ولكن ما ترامى إليه من أنباء وطنـــه جعله يؤثر العودة ، عبر عن ذلك فى قوله « رأيت أن ما يلحق بى الشين أن أرتحل طلباً للمتعة فى الخارج بينما يعانى بنو وطنى الآلام من أجل الحرية فى بلادى » .

هذه هى رحلة ملتن إلى إيطاليا ولسنا نجد لما شهده من المدن والآثار صوراً فى شعره اللهم إلا ماوصف به روما فى الفردوس المستعاد ، وهى صورة ليست بذات أهمية كان يستطيع مثلها لولم يسافر ؛ كذلك لم يظهر لملتن أثر لاستمتاع بلهو الحياة ، بل إنه أشهد الله وهو فى جنيف فى طريقه إلى موطنه أنه لم يأت شيئا فى رحلته تخجل منه الفضيلة .

(يتبع) الخفيف

جامعة فاروق الأول

الاسكندرية

اعــــلان

تعلن جامعة فاروق الأول عن الوظائف الخالية بكلية الهندسة المبينة بعد :

عدد

١ أستاذ ب من الدرجة الأولى (٧٥ — ٩٠) لكرسى التصميم المهارى .

١ أستاذ ب من الدرجة الأولى (٧٥ — ٩٠) لكرسى توليد وتوزيع القوة الكهربائية .

١ أستاذ ب من الدرجة الأولى (٧٥ — ٩٠) لكرسى النشئات المدنية والكبارى .

١ أستاذ جـ من الدرجة الثانية (٦٠ — ٧٥) لكرسى تصميم الآلات الكهربائية .

١ أستاذ جـ من الدرجة الثانية (٦٠ — ٧٥) لكرسى المواصلات السلكية واللاسلكية .

ويشترط فى الطالب أن يكون

ا — حائزاً لدرجة دكتوراه من جامعة معترف بها .

ب - مارس التدريس الجامعى .

جـ — قد مضى ما لا يقل من ١٥ سنة على حصوله على درجة البكالوريوس .

د — له مؤلفات وأبحاث علمية مبتكرة وخبرة علمية ممتازة .

هـ - ملماً باللغة الإنجليزية .

ويجب (١) أن يرفق الرشح بطلبه بياناً عن تاريخ حياته العلمية والجهات المختلفة التى اشتغل بها والمدة التى قضاها فى كل منها والأعمال الهامة التى اشترك فى تنفيذها .

(٢) أن تقدم طلبات موظفى الحكومة عن طريق المصالح التى يعملون فيها وأن يبين فيها الدرجة والماهية وتاريخهما .

وإذا كانت اللوائح المالية المقررة لا تبيح منح المرشح الدرجة والماهية المعلن عنهما فإن هذا الإعلان لا يكسبه الحق فيهما .

وترسل الطلبات برسم عميد كلية الهندسة فى ميعاد لا يتجاوز آخر يونية سنة ١٩٤٦ . ٥٢٧٩